أكثر من خاطرة (*)

ما كان للمسلم في هذه الأيام التي هرول فيها ضيوف الرحمن إلى البيت العتيق، أن يكون جامد الحس، خامل النفس، لا يتحرك قلبه شوقاً إلى تلك البقاع، وما يزينها من الضياع، ولا تفيض عيناه حزناً أن لم يكن في عداد إخوته الوافدين إلى رحاب مالك يوم الدين من كل فج عميق.

وتلك هي حيلة المؤمن المشوق.. شكر لمولاه المنعم المتفضل على كل حال. ودعاء خاشع لإخوانه بالوافر من توفيق الله وإحسانه، وأن تقع ابتهالاتهم في تلك المواطن التي يستجاب فيها الدعاء.. موقع الاستجابة فيما يتصل بخاصة أنفسهم وأهليهم وذويهم.. وفيما هو حرقة على أمتنا المنكوبة أن يرفع الله ما نزل بها.. وأن يبصرها طريق النصر والتمكين من جديد.

وكم كتب الكاتبون، وتحدث المتحدثون عن الحج فيما هو خامس أركان الإسلام - واللقاء الكبير العميق بين المسلمين، على العبودية لله والتآخي فيما بينهم، ومخالطة البقاع التي على أرضها نبتت شجرة الإسلام المباركة، وعلى حبات رمالها أهريقت دماء الشهداء، وبترابها عفرت جباه القانتين الخاشعين.. من أولئك الصفوة الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ووفوا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالعهد والموثق.. فكانوا ضياء الدنيا ومنار الوجود.

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد التاسع والعاشر، السنة الثامنة عشرة، ذو القعدة وذو الحجة ١٣٩٧هـ، تشرين الثاني وكانون الأول ١٩٧٧م.

لقد كتب من كتب . . وتحدث من تحدث . . وماتزال ـ ولن تزال ـ منابع العطاء غزيرة ثرة في تلك الفريضة المباركة التي تزين وجود الأمة الثقافي والعملي في كل عام . . ذلك لأن هذا الركن من أركان الإسلام قد استأثر بالصورة المثلى لعملية بناء المسلم في عقيدته وعبادته وسلوكه، كما تميز بأن كان الصورة الكاشفة لحقيقة ما عليه المسلم . . كل ذلك . . لأنه يجمع في شعائره بين العقيدة والمعرفة، والعبادة والسلوك . . ثم الانخراط فيما هو من المقدمات التي لابد منها لذاتية الأمة الواحدة التي تلتقي على العقيدة الواحدة والمنهج الواحد، والقيم التي تتوحد في إطار هذا المنهج . . كما تلتقي على التفسير الواحد للتاريخ المشترك في ظل تلك القيم، وعلى الانصياع لمدلولات العربية ومفهومات الدين في التعامل مع الأصول الأولى من كتاب الله وسنة نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وكل ما مرده إليهما .

فحج مقبول بلا عقيدة غير متصور، والعلم بشعائر الحج التي فيها قوامه ضرورة، والسلوك المتسم بأدب وأخلاق الإسلام أمر لابد منه في نظر هذا الدين، ناهيك عن الإحساس بذلك الواقع الحركي الذي يستعلي على فوارق الجنس واللون واللغة والأرض . . فذلك أمر صورته الأولى لقاء الإخوة في الله، وعلى كلمة الله، فكان أقوى مقومات الأمة . ووجهه الآخر اقتحام صارخ لكل نقيض قوامه عكاز مستورد مصنوع، مقبوح حامله، خاسئ مدعيه .

لقد باعدت بين هؤلاء الملبين الخاشعين الضارعين المسافات . . ولكن قربت بينهم العقيدة، وأخرج ذلك إلى حيز الواقع من القرب توحدهم على

القيام بهذه الفريضة وأداء مناسكها على أرض معلومة محددة وفي زمن محدد معلوم.

ولقد تختلف لغاتهم في الدعوة الخاشعة، والمناجاة الصادقة وأعينهم تفيض من الدمع، ولكنهم كلهم يدعون رباً واحداً، ويناجون إلهاً واحداً هو مولاهم الكريم المنان، الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويشكف السوء. وكان من آياته اختلاف ألسنة الخلق وألوانهم، ومن قدرته أن يعطي كلاً ما سأل.

انظر إليهم يجأرون: لبيك اللهم لبيك. انظر إليهم تلهج ألسنتهم بالضراعة.. يا الله يا الله.. هذه عبراتهم تحكي خشوعهم وخضوعهم لله الواحد سبحانه.. وهذه أكفهم مرفوعة إليه دعوات خاشعة بالعربية.. تطلعات وزفرات بغيرها.. والكل توحدوا طائعين حول البيت.. عاكفين في ظلاله ورياضه.. ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً.. ولو رأيتهم وهم يسلمون على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصاحبيه.. إنه رسولهم جميعاً... ومعلم الناس الخير.. ومربي أولئك الذي وضعوا أساس البنية الحضارية والتاريخ المشترك في ظل قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾، وقول رسوله الكريم: [**لا فضل لعربي على عجمي، ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى**].

ألا إن لقاء فريضة الحج، بما فيه من هذه التعبئة خلال فترة طيبة من الزمن يشترك فيها القلب والعقل والجسم والمال، وبما فيه من هذا التوحد الذي

ألمحنا إليه في حياة المسلم وبين المسلمين بعضهم مع بعض. . إن لقاء فريضة الحج ـ بما أنه كذلك ـ نذير هذه الأمة أن تعود أدراجها إلى التماس منهج الإسلام في التفكير والعمل كيما تسلم لها البنية الثقافية، واستئناف البناء الحضاري الذي كان لخير الإنسان وإسعاده في الدنيا والآخرة.

وهو نذير هذه الأمة أن تستشعر أمانة هذا الإسلام من خلال التفكير والتدبر في صنيع أولئك الذين يرى الحاج من آثارهم، ويشم عبير الدماء في الأرض التي أداروا عليها معاركهم تحت راية الإسلام. . فكانوا وقودها بنفوس راضية مطمئنة تظل ـ وإلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها ـ شاهد صدق على سلامة الطريق وعظمة الغاية. . وأن كل الأبواب إلى عزة الأمة من جديد موصدة، إلا باباً يصلها بسبيلهم ويسلمها إلى نهجهم.

وعلى سنن التذكار الفاعل المؤثر وفي استجلاء للتاريخ البعيد منه والقريب. تطالعنا ـ نحن المسلمين ـ وحجاج بيت الله يعمرون تلك الأرض بالمناسك في القول والعمل ـ حقيقة لله ما أعمق جذورها وأوسع أبعادها! تلك هي حقيقة ما ينبغي أن يكون عليه الموقف من الأوثان والوثنية، وما يجب أن يزود به العقل المؤمن في مواجهة الأصنام. فإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وكثير من شعائر الحج مرتبط تاريخياً بصنيعه على تلك الأرض المباركة ـ كان من عيون دعائه ـ وقد أسكن ذريته بواد غير ذي زرع عند بيت الله الحرام ـ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾، وكان منه ما كان من حرب على الوثنية وكل متعلقاتها، حتى

انهال على أصنام قومه ضرباً باليمين، وهذا بعض صنيعه وهو يدعو إلى ملة التوحيد التي ذكرنا الله تعالى بها في قوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ ولقد عاقبه الطاغوت وعبدة تلك الأصنام الصغيرة بأن ألقوه في النار، ولكن الله أنجاه منها وكان من خبر القرآن في هذا: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾.

وموقف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو الأسوة الحسنة لكل مسلم ـ من بدء البعثة وحتى فارق الدنيا ـ فداه أبي وأمي ـ كله حرب على الوثنية والأوثان والطاغوت والطغيان، كائناً ما كان اسمها أو عنوانها، ويوم الفتح كان ينادي وهو يقلب الأوثان التي كانت عند الكعبة: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾. وكم أرسل من البعوث لهدم وثن هنا، والقضاء على وثن هناك.. لما أن الوثنية عدوان على العقل وكرامة الإنسان وحريته، واستهتار بكل القيم الكريمة في الحياة، وما أكثر الأوثان والطواغيت تحت لافتات أخرى في هذا العصر!!

إن كثيراً من العوائق التي تحول دون الأمة اليوم، ودون أن تستكمل شرائط نهضتها ـ كما يريد الإسلام ـ ألوان من غثاء الوثنية في النفوس، وفي المجتمع، وحين ندقق في كل الزوايا والخبايا.. سنجد أن الغثاء الوثني له عناوين هنا وزخارف هناك في الأشخاص وفيما تهوى الأنفس، ويخضع لسلطان الشهوة وحب الدنيا أو طلب العافية.. يتعاون ذلك في أحلاف غير مقدسة: مع الجهل والغفلة، وتقاعس بعض الهمم عن الصعود، وكذلك حرب أهل الخصومة مع هذا الإسلام لما أنهم أعداؤه على الحقيقة أو المجاز، الصريح أو الكناية، الظاهر أو الباطن!!

من أجل ذلك ـ ونحن مع خواطر الحج ـ كان لابد من وضوح الرؤية واستعلان الحقيقة في تحديد المواقف عند مواجهة الوثنية بكل أبعادها وعدتها، تلك الحقيقة التي لا يحول دون استعلانها إلا متربص بهذه الأمة . . دعيّ النسبة إليها . . ويومئذ تأخذ أمتنا نفسها بما تقتضيه «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وتلتزم بكل ما هو من حقها ومستلزماتها من تغيير جذري في واقع حياتها، كيما تطوعه لحق «لا إله إلا الله»، وتشرق شمسنا من جديد.

إنه لم يعد خافياً ـ ولا عليك أن تدفن النعامة رأسها ـ أن أية محاولة لتغيير واقع الأمة في طول وطننا الكبير وعرضه، عن غير طريق الإسلام، عمل موصد الأبوب تائه السبل، سداه ولحمته الخبال والانتكاس، إنه ضرب في حديد بارد.

بل وإنه اجترار لتجارب أصبحت أكثر عدداً من مجربيها أو كادت . . خصوصاً من يصنعون أصناماً قميئة على جنبات الطريق. نريد أن نواجه الحياة بهذا الإسلام، الإسلام في تكامله وشموله وسديد نظرته إلى الإنسان وإلى الوجود . . ولست بسبيل الحديث عن الغافلين أو المتغافلين عن حقيقته، فقد بان الصبح لكل ذي عينين . . والذين يلوون ألسنتهم بلحن القول فيه . . هم من بعض المؤشرات التي تلفتنا إلى أن وراء الأكمة ما وراءها.

إن الإسلام قادر ـ حين نأخذه بأمانة من منابعه وكما فهم أصوله أئمة الهدى عبر التاريخ . . ـ أن يجعلنا ـ مع الإفادة من معطيات العلم ـ قادرين

على المستوى الحضاري أن نواجه العالم ـ ونحن أصحاب قضايا مصيرية على صعيد وطننا الكبير ـ بمفهوم واضح للدين والحياة، وفلسفة أصيلة ذاتية مرتبطة بهذا المفهوم لتاريخنا، بما يقضي على آخر خرافة من خرافات التجزئة في فهم حقيقة الإسلام ومعطياته ـ كما هو ديدن أصحاب لحن القول ـ ويباعد بيننا وبين أن تهتز البنية الحضارية التي هي صورة عن وجود هذا الدين بمفهومه الشامل المتكامل. . ولكن الذي ننشده أن يوجد المسلم الذي يكون في عقيدته ومعرفته وسلوكه بين يدي الله، ومع الناس: صورة عن التكامل الذي نلمح إليه والذي أذكرناه في صدر هذا الحديث: ما عشنا معه من شعائر الحج والقيام بالمناسك. وفي لغة عصرنا: لابد من توعية المسلمين على هذه الحقائق مستخدمين لذلك كل الوسائل الممكنة، وليت لمن بأيديهم الوسائل آذاناً بها يسمعون، وقلوباً بها يعون.

وهذا ما يحملنا على التذكير بثقل ما يتردد دائماً على الألسنة والأقلام أن الحج أكبر مؤتمر عالمي للمسلمين. وإني وإن كنت لا أستخدم هذا التعبير، ولكني أراه نافذة إلى تحريك همم كل القادرين ـ بأوسع مفهوم ـ على السير في طريق التغيير في واقع الأمة. . تعليماً، وتربية، وإعلاماً، تشريعاً وتنفيذاً وجهاداً. . أن يتحركوا لهذا الأمر، وأن يدركوا أن لا منجاة من المسؤولية أمام الله عز وجل إلا بالعمل، وأن العمل الصادق المخلص هو الوثيقة لجواز الامتحان الأكبر، حيث لا سلطان ولا صولجان، وأمام التاريخ الذي يحكم دون هوادة أو عبث، مهما أخذ لافتات التمويه من الحيز والأبعاد هنا وهناك.

وعلى ذكر الملتقى الكبير في الحج . . ما شأن تلك التوصيات والمقترحات التي تخلفها مؤتمراتنا وملتقياتنا في المشرق والمغرب . . توصيات بالعناية ببنية الجيل في مواجهة الفكر المعادي لقيم الأمة وتاريخها . . توصيات بالعمل على تطبيق الشريعة الإسلامية، مقترحات تدعو إلى ضرورة تنقية مجتمعاتنا من كل ما يخالف شريعة الله ودينه، وتطويع مناهج التربية والتعليم، والإعلام لهذه الغاية . توصيات بإحلال الجهاد محله اللائق في قضايا الأمة الكبرى التي هي من قضايا المصير . . وعلى صعيد الدعوة توصيات بتهيئة الدعاة وفسح المجال أمامهم، وإزالة العقبات من طريق دعوة الله كيما تنعم الإنسانية بخيرها وهداها . . وما نذكره هنا قليل من كثير كثير .

إن ما تغط به التوصيات والمقترحات من النوم العميق في أدراج المكاتب، وانحناءات الملفات المزخرفة، بدأ يدخل نوعاً من اليأس على نفوس النابهين من أبنائنا وبناتنا، والنظر إلى تلك المؤتمرات والتجمعات نظرة كنا نتمنى ألا تكون .

وفي عدد من أعداد «الحضارة» لهذا العام ألمحت إلماحةً سريعة إلى هذا الذي أعود إليه اليوم . . إذ من النصيحة ـ والدين النصيحة ـ أن نذكر ونعاود التذكير بالعمل المنظم، المدروسة خطاه وأبعاده، من أجل إخراج تلك القيم التي ندعو إليها بمؤتمراتنا وملتقياتنا، إلى واقع يتحرك ويثبت وجوده في حياتنا، بل يقود حياتنا في هذا البحران من الصراع الفكري والحضاري

واشتباه الأصالة بالزيف . . نريد أن نرى المعاني التي تحوم حولها الكلمات حركة وواقعاً في مضمار الوجود الثقافي والحضاري، والعلمي والتشريعي . . نريدها دماً دافقاً في شرايين هذه الأمة . . وروحاً جديدة في أسلوبها، قديمة في أصالتها ومنابعها كي تتفجر أرضنا بالعطاء، وتنبت من كل زوج بهيج .

فإذا قال من لا يملكون إلا القول . . بقي أن يعمل من بيدهم وسائل العمل والتنفيذ . . أولئك الذين تعظم أقدارهم عند الله والناس إن هم حملوا الأمانة الغالية، فكانوا أهلاً لأن يذكروا ويشكروا عن طواعية ورضى . . والتخلف عن العمل مع القدرة عليه، جفوة للأمة في دينها وقيمها أية جفوة، ومظاهرة لعدوها عليها أية مظاهرة . . وقهر للإنسان على أرضها أيما قهر . . وشر الرعاء الحُطمة، كما أنذر سيد الخلق ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

اللهم بحق السائلين عليك . . هب لنا من عونك ما يجعلنا مفاتيح للخير مغاليق للشر . . وأنزل السكينة في قلوبنا كي تثبت الأقدام على الطريق . . طريق أولئك الذين ينصرون دينك ويعوذون ـ إن حزب الأمر ـ بنور وجهك الكريم . . اللهم جنبنا مزالق الأذى ومهاوي الضياع، فالليل داج، والفتنة التي تدع الحليم حيران : عن ساقها مشمرة، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وفي خاتمة المطاف : إن من حق الإخوة البررة الذين يمدون مجلتهم «حضارة الإسلام» بنيِّر فكرهم وفيض إيمانهم ومشاعرهم . . أن نحمل إليهم

سعادة القراء بهم . . وتلك شهادة تدخر لهم عند من لا يضيع عنده مثقال ذرة . . إن الكلمة البناءة المؤثرة جديرة أن تذكر فتشكر ، وإن أصحابها جديرون أن يذكروا فيشكروا ، وليس الذي نقول مدحاً نزجيه . . ولكنه قولة حق تقتضينا الأمانة أن نسجلها هنا ـ والمجلة تختتم عامها الثامن عشر والحمد لله ـ .

وللقراء في أعناقنا حق أن نعمل ما وسعنا العمل على أن تسير المجلة في طريق ما يجب أن يكون ، على وفرة العقبات . . والمصاعب . . والله المستعان . .

ولنا عليهم حق إبداء الرأي وتزويدنا بمقترحاتهم . . وأداء ما يترتب من واجبات . . وإنه للفضل الكبير من ذي الفضل والمنة أن يجمعنا على الطريق التي رضيها . . وسيلتنا إلى ذلك هذه الكلمة الحية المؤثرة ، وجزى الله العاملين خير جزائه وتقبل الله جهاد من يحتسبون بالكلمة المؤمنة وجه الله . وكل عام وأنتم بخير .

وصلى الله على معلم الناس الخير وسلم تسليماً كثيراً .

الأسوة في بعديها الإيماني والعملي

وسورة الأحزاب(*)

الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الأسوة الحسنة المباركة الهادية للمسلم، أوجبها رب العزة تباركت أسماؤه. هذه حقيقة قرآنية لا يرتاب فيها إلا امرؤ زائغ عن الحق، أو ضائع عن ساحة المعرفة: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾.

والحقيقة الثانية: هي أن اتخاذ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو المبلغ عن الله ـ قدوة يتأسى بها، هو عنوان صدق الإيمان، وسلامة الارتباط بين المسلمين وبين دينهم الذي ارتضاه الله لهم، والجنوح عن ذلك جنوح إلى ما ترتضيه الشياطين. . شياطين الإنس والجن.

أما الحقيقة الثالثة في هذا الباب: فهي أن خطاب الأسوة في القرآن، ليس مقتصراً على فرد أو أفراد، وإنما هو لجماعة المسلمين عموماً، يدخل في ذلك ما ينبغي أن يكون عليه الفرد والمجتمع والدولة والأمة.

ومن وراء ذلك كله: لا بد من أن نستذكر بكثير من الموضوعية والإدراك، أن ساحة التأسي ليست مقصورة على جانب من جوانب التعبد في ذات الفرد المسلم، وإنما هي ساحة متسعة الأرجاء، تشمل ـ فيما تشمل ـ شؤون الحياة في كل كلية وجزئية مما تناوله الإسلام الحنيف بالعناية والتدبير.

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الأول، السنة التاسعة عشرة، ربيع الأول ١٣٩٨هـ، شباط ١٩٧٨م.

وهذا الذي نقوله، ليس بدعاً يبتدعه المرء من عند نفسه، ولا تخمينات عنَّ لهذا القلم أن يدعيها، ولكنه قضية كبرى واضحة ـ لكل ذي بصيرة ـ وضوح الشمس في رابعة النهار يراها المؤمن في الآية الكريمة وسبب نزولها، والوقائع التي أحاطت بها.

الآية التي جئنا على ذكرها في صدر هذا الكلام، واحدة من آيات سورة الأحزاب، وسورة الأحزاب سورة مدنية، تحدثت ـ فيما تحدثت ـ عن غزوة الخندق ـ الأحزاب ـ التي وقعت في السنة الرابعة أو الخامسة للهجرة، حيث تمالأ الأعداء من يهود ومنافقين ومشركين على دعوة الله والمسلمين، وجمعوا جموعهم من كل حدب وصوب، وكان في تقدير من خططوا للمعركة وأعدُّوا لها، أن تكون القاضية على الدعوة وجند الله في الأرض، إذ لم تنحصر المناجزة بين المسلمين وقريش، وإنما كانت الجموع من الأحابيش وكثير من القبائل.. ولكن الله خيب فألهم، وكفى الله المؤمنين القتال.

ولقد رأينا الآيات لا تطيل الوقوف عند الواقعة التاريخية من حيث هي، بل لم تعرج على كثير من الوقائع الجزئية.. ولكنها تقف موضحة موجهة عند المعالم الأساسية فيها.. ما به قوام النصر عند المؤمنين.. حقيقة ما كان عليه المؤمنون في مواجهة العدو الذي يفوقهم بنسبة كبيرة عدداً وعدة، والذي جاءهم من فوقهم ومن أسفل منهم.. حقيقة ما كان عليه المنافقون فيما صنعوا.. وفيما تآمروا وكذبوا.. دعوة المسلمين إلى أن يكونوا دائماً

على الخط الهادي المشرق بقيادة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في مواجهة التحالف الآثم بين المشركين واليهود والمنافقين.

وفي هذه الغمرة من صنيع القوى الكافرة، والخطر المحدق بدعوة الله وجندها، وما يمكن أن يترتب على ذلك من نتائج، وكيف كان المسلمون مدعوين إلى الصبر والمصابرة، وأن الله معهم بالعون حين يكونون كذلك.. من خلال هذه الغمرة حيث الشدة الشادة، وظلام الوقائع الحالك.. نقرأ فيما تنزل من آيات الأحزاب قول الله تبارك وتعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾.

فرسول الله ـ وهو إمام المؤمنين والمجاهدين ـ خطط، وأعد، ونفَّذ، وأسهم مع جنوده بكل ما يستطيع بحفر الخندق، حتى ذلل لهم كل صعب من صلد الصخور خلال الحفر والتهيئة.

وفيما رسم وأعد ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان الإنسان المؤمن قيمة كبيرة، وثروة غالية، لا يمكن خوض المعركة دونها، وحين يكون الإنسان، ويقول الإيمان كلمته مع الإعداد الصادق.. حدِّث ولا حرج.

إذا ذكرنا ذلك كله من صنع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وذكرنا كل ما أحاط بالآية الكريمة من النصوص والوقائع فيما قبلها وفيما بعدها.. ولم يكن يرهبنا التأسي لكيلا ينكشف العوار ويفتضح الزيف.. أدركنا ـ وبكثير من الوضوح ـ أن الآية في بعديها الإيماني والعملي تدل على أن حس

التأسي برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سمة الإيمان . . وأن ذلك لا يقتصر على فرد أو أفراد، كما لا تحده زاوية من زوايا التعبد . وإنما هي دعوة لالتزامه في كل شأن من شؤون الحياة، ولابد أن توظف كل معطيات العلم والتجربة، وما وصل إليه العقل البشري على ساحة الإعداد في خدمة هذه الطريق . . كيما يكون المنهج النبوي العملي ـ الذي حكم الحياة في كل شؤونها وعلاقة الإنسان بها ـ نبراساً للأمة ينهض بها من عثار، ويحملها لواء قيادة العالم مجدداً . . لأن عنوان العمل بهذا المنهج تأسياً وقدوة، ستراه إيماناً وعملاً وإخلاصاً وسلامة غاية وأخلاقاً تباعد عن الأثرة والظلم، وتحول دون الاستعلاء والطغيان، وتحول دون التهاون بحقوق الأمة . . خصوصاً إذا تذكر المسلمون ـ دون حصر ذلك بفئة دون أخرى ـ أن ذلك أمانة الله في أعناقهم، وامتحان الصدق في إسلامهم وإيمانهم . . من خلاله ينظرون إلى الحياة، وبقيمه يقدرون الرجال، غير عابئين بالزخارف والتمويه . . وعلى هديه يتعاملون مع الآخرين في السلم والحرب .

وإذا كان الأمر كذلك . . فإن الذي ابتليت به أمتنا من عدوان يهود، لابد عند النظرة إليه ومعاناة دفعه والقضاء عليه من أن يكون في الحسبان منهج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو الأسوة الحسنة ـ ولقد كان من بلائنا وحسن حظ العدو الماكر . . أن الأمة لم تنظر إليهم وهي تواجه عدوانهم الظاهر والباطن ـ متأسية بالرسول عليه الصلاة والسلام ـ، وإنما جربت مسالك أخرى ضربت عليها لوناً من التيه في هذا العصر الحديث ما نزال نعاني آثاره على كل صعيد، ولا تنسَ الصعيد الفكري .

والمفروض أن تكون خلائقهم كما فصّلها القرآن ـ على أنها من الثوابت ـ في الحسبان . . وأن يكون سلوكهم مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمين في الحسبان . . وأن تكون كل واقعة منذ وطئت قدما رسول الله المدينة وحتى يوم الناس هذا في الحسبان .

فهم المغضوب عليهم ، ومن أشد الناس عداء لنا ، وهم المضروب عليهم الذلة والمسكنة ؛ فقوتهم ليست ذاتية ، وإنما هي على حساب تمزقنا ، وجفوتنا لمنابع القوة الأصيلة أولاً ، وسعيهم إلى هدف مرسوم بمعاونة الدول الاستعمارية والأخذ بأسباب القوة ثانياً .

لقد قاد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنفسه معركة الصراع بين الحق والباطل ثلاثة وعشرين عاماً ، على اختلاف وجوه المعركة وتعدد أهل الباطل والرايات الشيطانية التي قاتلوا تحتها .

وكان من أطراف الصراع في هذه المعركة : اليهود ، وكانت له معهم جولات غنية بالعطاء في ميادين السلم والحرب . . وهي جولات تمثلت فيها أخلاقية المسلم وقوته ، ثم انطلاقه على هدي عقيدة يحملها بين جنبيه وغاية كريمة يهدف إلى تحقيقها . . فترى الأمور توضع موضعها ، حيث الحفاظ على العهد وأمانة الوفاء ، واستخدام القوة حيث يجب أن تكون ، كل ذلك في يقظة تجعل المسلمين على تذكر خلائق اليهود الذين هم أشد الناس عداوة لنا ومعهم المشركون ، تلك الخلائق التي أورثتهم غضب الله ولعناته ، وكانت تحكم علاقاتهم مع أنبيائهم ، ومع أصدقائهم وخصومهم ، وعرفت

البشرية من ذلك نماذج قد تكون موضع كثير من دهشة واستغراب . . ولكنها أصبحت طبيعية لأنها من سمات يهود .

وبعد انتقال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الدار الآخرة، كان اليهود في علاقتهم بأمتنا يضيفون كل يوم جديداً، يعمق في النفوس قناعتها بالحقائق القرآنية، ووقائع السيرة معهم، وما أحسب أن شمس يوم من الأيام طلعت على أمتنا خلال أربعة عشر قرناً لم يكن لليهود فيها واقعة عداء ظاهرة أو مستخفية، بدءاً من السبئية، ومروراً بنفثات الهدم والتدمير من يهود الدونما، وانتقالاً إلى قضية فلسطين، وما نحن عليه اليوم من حال تتقطع لها الأكباد وتذوب القلوب .

إن الإعراض عن أن يكون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو قائد ركب الحق في صراعه مع الباطل، الحكيم في استخدام اللغة المناسبة التي لا ينفع غيرها، وأسوة هذه الأمة في سلمها وحربها : كان سلاحاً يقاتل مع العدو ويرتد إلى صدورنا لما أنه سلاح ذو حدين . أما أحدهما : ففي الميدان العملي، وأما الآخر : ففي الميدان الفكري . أن لا نتأسى ونعترف بالإهمال وسوء الأحدوثة والتطلع للعودة : أمر قد يقبل إلى أمد ريثما يستأنف الطريق، ولكن الخطر الماحق أن يرافق هذا البعد قناعات فكرية هي من أغلى ما يتمنى العدو أن تتربى عليه أجيال الأمة بحيث تتنكر للسلاح الفعّال ـ ولا أعني به السلاح المادي ـ الذي استخذى أمامه اليهود . . إن تولية الوجوه شطر قناعات تتنافى مع الذي كان قوام وجودنا وانتصاراتنا : نذير شؤم

ودمار لا يقضي على أخطاره إلا الأوبة الصادقة الواعية إلى حسن التأسي بالنبي الكريم، بسلوكه ونهجه ومعالم صدقه وقوته في السلم والحرب، وحسن اختياره لكل مرحلة ما يناسبها.

إن اتساع آفاق المعرفة اليوم وتشعب طرق التثقيف لا يقوم عذراً في الإعراض عن المنابع الأولى وأصول المعرفة والسلوك كما هي في كتاب ربنا وسنة نبينا وسير من ساروا على هديه في التاريخ.. بل على العكس، عندما تؤخذ المعرفة ومعالم السلوك على بصيرة، يكون تمتين الأواصر مع الأصول الأولى ظاهرة الوعي وسلامة الاختيار.. ونحن اليوم نرى بأم أعيننا ونقرأ ونسمع كيف أن أعداءنا اليهود يصرون على مفهومات توراتية ـ كما يزعمون ـ وأنه لابد أن تكون دلالات ما يريدون مأخوذة كما هي في العبرية، ولكل واقعة من تاريخهم مكانها الطبيعي في تحريك تاريخهم الحديث وبنائه.. في الوقت الذي تراهم يبنون قصوراً من دخان يزعمون أنها حقوق وأنها تاريخ.

نريد أن تنهزم تلك المقولة الفارغة.. مقولة أن العودة إلى الأصول، والتطلع الصادق لحسن التأسي عودة بالتاريخ إلى الوراء، والسير باتجاه معاكس لمعطيات العلم.. وأي خدمة للعدو تقدم ـ ببله أو سوء نية ـ تكون أشنع من هذه؟!

ومقولة أخرى قد تكون في خدمة سابقتها وشريكتها في المساءة: تلك التي تحاصر الرغبة في العودة إلى الصراط السوي، والتماس الأسوة الحسنة.. تحاصرها لتجعلها سمة فريق خاص من الناس هم على حد زعم

أصحاب المقولة من يسمون بالمتدينين، حيث اختاروا لأنفسهم هذه الطريق، فهي رغبات شخصية يُسكت عنها إذا لم تقف عائقاً في طريق التقدم الحضاري!!

لست بسبيل تفنيد هذا الغثاء وأمثاله من العداء لهذه الأمة، ولكنها اللمحة العابرة التي قد تغني عن الكثير مع طول التجربة ورحلة الشقاء والعناء، بعد أن تحوّل الشراع إلى حد كبير إلى وجهة غير الوجهة التي ارتضاها سيد العالمين محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولم نجن من وراء ذلك إلا الصاب والعلقم في صدام واضح مع مدلول قوله تعالى: ﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾.

وإذا كانت عشر سنوات أو ثلاثون سنة لا تقرر مصير الأمة مادامت في الأمة روح تحرك أعماقها، وتدفعها إلى معالم الطريق، وتنزع بها صعداً إلى حيث النقد الذاتي، والبذل والعطاء، وإعطاء الأعمال أقدارها في ضوء القيم التي تؤمن بها تلك الأمة.. أقول: إذا كان الأمر كذلك وكان مع هذا كله إدراك للأسوة في بعديها الإيماني والعملي.. فإن الأوان لم يفت حتى تعود الأمة إلى سواء الصراط، فتكشف زيف كل الخطى الآثمة التي تحاول إلغاء وجودها، وإعطاءها هوية التخاذل والاستسلام تحت عنوان الرغبة في السلام والتمنطق الحضاري.. في نسيان أو تناسٍ لحقيقة العدو الذي نواجهه، ولكل التجارب التي خضناها معه تحت راية العقيدة وقيم الإسلام، بل في إهمال عمدي للإنسان الذي أراد له الإسلام أن يكون في وجود كريم يقدره على

الاضطلاع برسالة السماء. نعم إن الأوان لم يفت.. وعند ذلك تعود القضية إلى وضعها الطبيعي وأنها قضية أمة لا قضية أفراد، وأن العقدة القاسية لن يحلها إلا سيف محمد بن عبدالله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

إن نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأكرم به من أسوة! ـ واجه الباطل بكل صنوفه وأحابيله ما ظهر منها وما بطن، بيهوديته وشركه ونفاقه على صعيد الفكر والسلوك وفي ميادين القتال.. واجهه بالإنسان الذي بناه على عقيدة التوحيد والمعرفة، وحصنه بالعبادة وسلامة السلوك، فحمل راية الجهاد مقاتلاً صادقاً يطلب الموت ابتغاء مرضاة الله، وفي يمناه طريقة تفكير ومنهج عمل واعتزاز بالدين الذي آمن به.. وهذا الإنسان هو الذي شرعت له أبواب بلاد الشام ومنها فلسطين.. لقد دخلها الإنسان الذي صاغته اليد المحمدية ومهد السبيل وأنشأ الحضارة، ثم دخل الأعداء من الباب الذي خرج منه خضوعنا للإسلام..

فإذا شئنا أن نطهر تلك الأرض من رجس اليهود، وأن تكون لنا الكلمة الأولى في هذا الصراع التاريخي بين الحق والباطل: فلنعد إلى حقيقة التوحيد، ولْنَبْنِ الإنسان على الطريقة التي بناها محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، مفيدين من معطيات العلم والتجربة، بعيداً عن العبث وضلالات يهود ومن هم على شاكلة يهود.. نوالي في الله أحبابه وأنصاره، ونعادي بطاعته من خالفه وعصاه، نصدق العهد مع الله في حب الجهاد والاستشهاد.. لا نُوادُّ من حادَّ الله ورسوله ولو كان أعز الناس وأقرب الناس، ولله الأمر من قبل ومن بعد، والحمد لله على كل حال.

أو أهلك دونه(*)

لم يعد عجباً من العجب اليوم: أن ترى أحكاماً فكرية أو عملية تطلق ببله أو خبث على المسلم أو الإسلام نفسه من قبل مخلوقات هنا أو أناسيَّ هناك دون دليل ظاهر أو حجة قائمة؛ فمرد ذلك في كثير من الأحيان إلى أنَّ هؤلاء وأولئك من مرضى القلوب يريدون للمسلم أن يتحاكم إلى مصطلحات هم ابتدعوها من عند أنفسهم، أو أخذوها من غيرهم، ليست من الإسلام ولا من تراث الأمة في شيء؛ فهذه قضية تدخل ضمن الذوق الحضاري وتلك لا تدخل!! وهنا تقدم وهناك تخلف!! إيمانك بالغيب يخرج مسارك الفكري عن نطاق العلم!! وإنكارهم الغيب في تنكر لرسالة السماء تتزحلق بمسارهم الفكري إلى رياض العلم!! هذه إيجابية وتلك سلبية!! وهكذا دواليك.. يبتدع المصطلح من عند نفسه أو يستورده، ثم يصدع الحكم من خلاله على المسلم والإسلام، بل على تاريخ الأمة وعناصر وجودها.

إن الاحتكام إلى طاغوت مصطلحات من هذا النوع لا تتسق ـ على الحقيقة ـ مع العلم، ولا مع منطق التاريخ، بل ولا مع الواقع.. واقعِ الأمة عندما أقامت وجودها الثقافي والعملي على ركائز هي في مقياس هذه المصطلحات: أمر لا يعجب عباقرة القرن العشرين!!

والذي يهمنا في الموضوع: أن من هذه المصطلحات اليوم: السلبية والإيجابية؛ حيث يتهم المسلمون دائماً بالسلبية، وإذا أخذت من القاعدة

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الثاني، السنة التاسعة عشرة، ربيع الآخر ١٣٩٨هـ، آذار ١٩٧٨م.

التي ألمحنا إليها بطرف، وجدت أنهم يريدون من المسلم أن يكون إيجابياً مع كل شيء يرونه، لا مع الحق الذي يرى أنه الحق. . وقمين بمن يحمل دعوة الحق أن ينظر إلى الحياة من خلالها، وبهذا المنظار يحكم على الأشياء والوقائع والأشخاص، فالسلبية ليست على إطلاقها، وكذلك الإيجابية.

ولو أن كل إحجام عن مسايرة الركب مهما كان شأنه سمي سلبية: لانْقضى تاريخ الإصلاح في العالم، ولما رأيت حقاً يناهض باطلاً، وإن كانت السلبية كما هي عند أهل الحق مطلوبة في بعض الأحيان.

إن الإيجابية كل الإيجابية أن تكون مع دعوة الحق، وأن تكون مع المقاييس التي كانت بها أمتنا خير أمة أخرجت للناس، وإذا كان هم الداعية المسلم أن يسهم في تغيير واقع الأمة إلى ما هو الأفضل، فجدير به أن لا يرضى لأمته إلا ما يرى أنه الحق، وإلا ما يرى أنه الخير حسب القيم التي تفرضها دعوته، تلك الدعوة التي تؤيدها النصوص الصحيحة المكتوبة، والبيان العملي من حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ومَن نهج طريقهم عبر التاريخ، ثم من تجارب الأمم والشعوب، التي تنادي نتائجها وثمراتها أن الخير كل الخير في الانضواء تحت الراية التي رفعها محمد بن عبدالله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكلتا يديه ونادى الإنسان ـ بوصفه إنساناً ـ مهما كان جنسه أو لونه أو لسانه أو الزمن الذي سيوجد فيه: إلى التحرك تحتها؛ لأنها تعني كل شيء هو حق، وكل شيء هو من كرامة الإنسان، وكل شيء هو من سعادة الدنيا والآخرة.

وأسوة الداعية المسلم اليوم وكل يوم: هذا النبي الكريم، الذي وقف من الوثنية وكل أمر هو من الجاهلية بسبيل، موقف المناهضة وإزالة الركام، وكانت الإيجابية أنه ـ وكما هو المنهج القرآني ـ شرع في هدم الضلال بشتى أصوله وفروعه ومظاهره، ووضع مكانه لبنات الهدى في بناء سامق كريم لا تجد خصلة من خصائل الخير إلا ولها مكانها الطبيعي فيه، وكل أولئك بحكمة منقطعة النظير.

واليوم: لا على الداعية المسلم الواعي، الذي يجمع إلى العقيدة الصحيحة المعرفة الواعية، والسلوك العملي الذي هو صورة عن المعتقد والمعرفة، ثم الإدراك الحقيقي لطبيعة الأرض التي يتحرك عليها، والمناخ الذي تتحرك في ظلاله الدعوة.. أن يقال: سلبي أو إيجابي، فهو سلبي من الباطل وإيجابي مع الحق، وكذلك سمة الصراع بين الحق والباطل، وكذلك حركة التغيير سواء أكانت من داخل النفس أو من المجتمع.. وهي أحكام لا تهتز عند المسلم؛ لأنها قائمة على أسس سليمة ثابتة.. أما أولئك فمن يدري.. علامَ قامت إيجابيتهم وسلبيتهم؟؟

وعندما يراد لنا أن نتحاكم إلى مصطلحات مبتدعة أو غير مبتدعة، فذلك دليل جديد على أن ما نحن عليه هو الحق، وأن ركائز الفلاح التي قامت عليها نهضة الأمة من العثار في الماضي، هي التي يجب أن نعمل على التزامها والاستمساك بها، كي نستضيء بوهجها، وكي تتحرك عزائمنا بقوة انطلاقها، وكي تكون لنا القدرة على تجاوز منحنيات الاسترخاء والدعة،

وتجفيف تلك المستنقعات الآسنة من حياة الأمة، التي ابتليت بالإعراض عن ذكر الله، فأعطت للباطل وأهله مقاتلها.

إن واحداً من أيٍّ من تلك المصطلحات التي يتنفس من خلالها أعداء الإسلام، لن يرهب المسلم الحق، المؤمن بدينه، الواثق بقدرة أمته على العطاء إن هي عادت إلى ساحة الاستجابة لله وللرسول مجدداً. وليقل أعداء الأمة والجناة على تاريخها والمتأولون لمعالم حضارتها ما يقولون.

وصرخة الحق الصادقة المخلصة التي هدمت تاريخاً وبنت تاريخاً وأمة: [**والله يا عماه لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه**]. صرخة الرسالة هذه لابد أن تكون النبراس الهادي، والكلمة التي تحفر في جنبات الحياة لتبني تاريخنا مجدداً.

وعندما يترجم هذا الذي نقول إلى وعي وحركة ومعرفة وصدق في المواطن، تعمل هذه الكلمة عملها وهي من سيد العالمين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، كيف وأنه لم يقلها حروفاً ضاعت في كتب الفلسفة والمتفلسفين، وإنما كانت كلمة برهانها معها، وصاغ على مدلولاتها رجالاً حملوا العبء، وأعطوا لمن بعدهم كل الدروس النافعة في هذا المضمار.

وفي خاتمة المطاف: إن الذي تقتضيه طبيعة الصراع بين الحق والباطل ـ والدعوة إلى الله حقٌّ كلها ـ أن يقال عن الإسلام كذا وعن المسلمين كذا، وبدل السلبية اليوم قيل عن بعض رسل الله سحرة وشعراء، واتُّهموا بالكذب وقول الباطل والجنون، ولكن ذلك كان دليل حماقة من يقولون،

والجاهلية التي تحت مطارقها يترنحون. وفرعون قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ وأكذبته الحقيقة.

أن يُلبسكَ عدوُّك الثوبَ الذي يهوى، ويطلقَ عليك الحكم الذي يريد، تلك قضية تحمل بذور كذبها وهدمها، وشاهد صدق على أن ما أنت عليه هو الحق.

على أن هذا لا يناهض أن تكون على يقظة من كل كبيرة وصغيرة على الطريق، فتكون شجاعاً تقبل النقد البناء البعيد عن الهوى، وتحاسب نفسك قبل أن يحاسبك الآخرون، ولا تجبنَ، فيستفحل الداء ـ لا سمح الله ـ ويتعاظم الخطر!!

ولكن القضية الأولى تظل في أن تكون على مثل الجبال الرواسي فيما أنت فيه من قضية هي وجودك الحقيقي، ينصرها الدليل ويدعمها سلطان الحجة، مهما تنوعت السبل في ثنيك عنها أو إبعادك عن ساحتها، كيما تُستَجرَّ إلى عاجلة لا تغني من الحق شيئاً، أو توهُّمِ قناعة لا تلبث أن تتبدى لك سراباً خادعاً، وعندها تندم ولاتَ ساعة مندم، وتَذكر بكثير من الأسى ما أنسيته من قبل. تذكر قول الله جلت حكمته: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾.

أرأيت؟ إنه الإعجاز الذي يشعرك بوافر الوضوح أن الآية التي تنزل بها الوحي قبل ألف وأربعمئة عام، تبدو كأنها تنزل اليوم غضة طرية من أجلنا نحن، من أجل واقع الأمة كي نكون أقوى من سلطان الغفلة عن حقيقة من

نحن، وبأي شيء يكون وجودنا، وما هي المصطلحات التي يجب أن نحتكم إليها؛ تتنزل مستعلية على حدود الزمان والمكان.. من أجل أن تكون الحارسَ الأمين لكل المراحل التي تمر بها الأمة.. كيما يُسلم الراية جيل إلى جيل.. بعيداً عن التميع واختلاط المفهومات والمصطلحات.. والالتباس المضني بين الحق والباطل.. حيث يلبس كلٌّ لبوس الآخر.. حيث تضرب الغفلة بجرانها رؤوساً فارغة، وحيث الأفئدة هواء. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المسلم .. والمشكلة (*)

إن ما يعانيه المسلم المعاصر اليوم في ممارسته اليومية لشؤون الحياة . . واقع لا يستقيم في ميزان العقل جهله أو تجاهله، فهذا يجوز . . وذاك لا يجوز . . وهذا حرام وذاك مكروه، وما حكم قضية كذا في الحياة الاجتماعية . . وما موقف الشارع من الأمر الفلاني في مجال الاقتصاد . . إلخ . وهذا كله وغيره كثير: هو واقع فيه، ولقد يحار في كثير من الأمور ماذا هو صانع . . هل يترك كذا لكذا؟ هل يرتكب أخف الضررين؟ هل يسلم نفسه إلى ما يسمى عموم البلوى؟ هل يرتكب في ما ندعوه بالضرورة؟ وعند ذلك ما هي حدود الضرورة؟ وما هي أبعادها كيما تكون هي هي التي أبيح المحظور من أجلها؟ وهل هو على حال يمكن أن تنزَّل الحاجة فيها منزلة الضرورة؟!

وفيما وراء الواعين للحقيقة، الباذلين في سبيلها مهما كلفهم الثمن . . ترى الباحثين في حال هذا المسلم اليوم، يرثي بعضهم لحاله، ويشتاق آخرون إلى تبدل الحال بخير منها وهم قاعدون، بينما يدعو البعض أن يجيرهم الله من أعظم، ولسنا بسبيل التفنيد لآراء هؤلاء وأولئك، وأيها أقرب إلى نظرة الإسلام نفسه حين يحزب الأمر ويشتد الكرب وما هو الواجب في مثل هذه الحال . . وعلى عواتق من تقع مسؤولية ذلك؟

لسنا بسبيل هذا، ولكن لنا كلمة صغيرة ننفذ بها إلى حيث يتباكى المتباكون عن حسن نية أو سوئها فيبتعدوا بنا عن مكمن الداء، وتقوم

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الثالث، السنة التاسعة عشرة، جمادى الأولى ١٣٩٨هـ، أيار ١٩٧٨م.

كلماتهم بدور امتصاص المشاعر المتململة حيناً أو الغاضبة حيناً آخر، وقد تقوم غمزاتهم بدور التيئيس من إمكانية التغيير، حتى كأن الأصل هو الانحراف، والدعوة إلى استقامة الأمور هي الطارئ الذي يعكر على الناس صفو حياتهم. وفي هذا ما فيه من الحيدة عن الطريق التي يجب أن تسلك، واستبدال الشك المضني والتشاؤم القاتل بمنطلقات العقيدة وعزيمة التغيير الذي هو واجب لا مندوحة عنه: صورةً من صور المسؤولية التي لا تبارح المسلم في أداء الأمانة حتى تبلغ الحلقوم ويلقي عصا التسيار.

إن الذي يعانيه المسلم المعاصر اليوم عند مواجهة الحياة بما فيها من طارئ ووافد، هو ظاهرة المشكلة أو واحد من آثارها، وليس المشكلةَ نفسها على الحقيقة؛ ذلك أن المسلم ليس إنساناً تصرفه في الحياة حاجات مبتورة عن معانيها، ولكنه إنسان صاحب رسالة، يفترض أن ينظر إلى الأمور كلها والوقائع كلها من خلال قيم تلك الرسالة ومقاييسها، لما أنها رسالة تحمل فيما تحمل ـ مع عقيدة التوحيد التي هي عقيدة الفطرة ـ: افعل، لا تفعل، هذا واجب، وهذا حرام، ذاك جائز، وذلك مكروه، والثالث مندوب.. إلخ. مع المرتكزات الحضارية التي يجب أن تكون والتي عرفتها الإنسانية ردحاً من الزمن. وكل ذلك ضمن مقاييس الشرع والعقل، لما أن العقل السليم لا تخالف بينه وبين الشرع.

فحين يمارس هذا المسلم شؤون الحياة، أو يواجه قضايا المجتمع، ويبدو شيء من هذا متخلخلاً أو في طريق التخلخل، يحمل سمة التعارض مع

رسالته أو يكاد . . يكون لزاماً أن ننظر إلى جذور المشكلة التي تتمثل في انحراف المجتمع عن منهج الله، هذا الانحراف الذي يتمثل في خضوعه لقيم غير قيم تلك الرسالة انتماء وولاء، عقيدة وشريعة، سلوكاً ونظام أخلاق، علماً وثقافة . . وكثير كثير أن نقول غير ذلك .

هذا في الوقت الذي يؤمن فيه المسلم: أن قيم رسالته ومقاييسها هي التي يجب أن تحكم وتوجه دفة الحياة، وهي قيم ومقاييس يعتز بحملها عن عقيدة واعية وبصيرة نافذة، ويرى أن وجوده الحقيقي منوط بوجودها مضمونات لا عناوين جوفاء مبهرجة قد يراد منها التعفية على تلك المضمونات، زوراً وبهتاناً .

وعلى هذا: فلسنا أمام مشكلة المسلم المعاصر في المجتمع، فهذا من آثار المشكلة، ولكننا أمام انحراف المجتمع ـ كما أسلفت ـ عن منهج الله .

ولسنا ننزلق في هذا على خط التشاؤم أو التفاؤل، فتلك قضية أخرى ولكننا مطالبون بأن نحدد الذي نريد، وأن ندقق في الزوايا والخبايا بموضوعية وأمانة، كيما نعود وفي جعبتنا الجواب الدقيق عن كثير من التساؤلات، لعل من أقربها وأبسطها لِمَ كان الأمر الفلاني كذا؟ ولِمَ كانت تلك القضية على ما هي عليه؟ وأيّ شيء ترتد إليه تلك الجزيئات من هنا وهناك؟ وهل كل أولئك جاء مصادفة؟ أم أنه مرتبط أيما ارتباط بالخط العام الذي يحمل حقيقة المواجهة بين الإسلام وأعدائه، وما كان من تآمرهم على كل صعيد، واستخدامهم لكل سلاح، ثم ما كان من إعراض المسلمين عن منهج الرسالة وإعطاء مقاتلهم لأعدائهم؟

وفي ضوء ذلك كله ـ بتحديد موضوعي وتاريخي ـ: لا يُغفل عن طبيعة المشكلة، ولا يُهمل أن يكون في الحسبان استخدام المناسب في مواجهتها على هدي الشريعة الغراء.

في ضوء ذلك: يبدو بكل وضوح أن المسلم المعاصر لم تأت حيرته حيناً، وتساؤلاته حيناً آخر، بسبب أنه لا يصلح هو لمواجهة الحياة، لما أنه يتسم بالسلبية وعدم القدرة على التكيف، فننعي عليه سلبيته وجموده على مفهومات معينة حالت دونه ودون التكيف المناسب!! والواجب أن نحدد بشجاعة أبعاد المشكلة في حقيقتها وجذورها الضاربة هنا وهناك، وأبعادها فيما أشرنا إليه، حيث يبدو العبث بالقيم الإسلامية اليوم، وفتنة أهلها من تلك الأيدي الصغيرة أو معلمتها الكبيرة؛ امتداداً لذلك الانهدام الذي تتمثل فيه حقيقة المشكلة.

وفي لومنا أو رثائنا للمسلم المعاصر ـ ذكراً كان أو أنثى ـ سلبيته المزعومة، نكون كأولئك الذين يدعون الجاني في عبثه وحريته، ويصبون جام غضبهم على تلك الأم التي ذبح ولدها الشاب أمام ناظريها، لم (تبكي؟) وتصرخ مطالبة بدم ولدها.. لقد أزعجت الجزار!! فلم تمارس الحياة ممارسة حضارية.

وعندها يكون الواجب المُلِح والمهمة الصعبة التي لا محيد عنها أن نضع المسلم ـ بمنهجية وحرارة إيمان ـ على الطريق، الذي يتسم بالعقيدة والوعي المبصر وحب الجهاد ونعينه بالبيان الإيماني والعلمي. وهي طريق لابد أن تزدان بالضحايا والشهداء ثمرة للتمحيص والابتلاء.. وهي لم تفقد روادها

ـ والحمد لله ـ فسلسلة الشهداء الأبرار لا تنقطع. وما ذلك الحرص من أعداء الأمة على تحويل الأجيال عنها، ومحاولة البتر لكل الأرجل التي تتحرك عليها جسدياً وفكرياً: إلا صورةٌ مثلى لأحقيتها.

وهكذا.. فبدلاً من أن نندب الحظ العاثر، وننحي باللائمة على المسلم المعاصر في حيرته، وضعفه عن مسايرة ركب التطور والعلم! يجب أن نضع الأمور مواضعها، ونحسب لكل قضية حسابها، وندرك ببصيرة المؤمن أن العلة عند أعداء الله في المسلم المعاصر ـ شأن كل مسلم سلف ـ أنه مسلم وكفى. نعم.. إنه مسلم وكفى.. ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾. وليكن في الحسبان دائماً أن «ربي الله» لها ما لها من مسؤوليات وتبعات.

إن المسلم إنسان صاحب رسالة. فإذا اتخذ رسالته وراءه ظهرياً باسم التكيُّف والبعد عن السلبية: فكبر عليه أربع تكبيرات، وإذا رأيته يتعلم ويعمل.. ويعي ما حوله.. غير غافل عن ماضي الأمة وحاضرها ـ بما يحدد تاريخ الانعطاف ـ يرافق ذلك كله روح الجهاد، والثقة بما عند الله ثقة تبعث على ترك الفانية للباقية، والتحول عن العاجلة إلى الآجلة..

إذا رأيته على هذه الحال: فاعلم أن الخير هنا.. وأنه قد وضع قدمه على طريق الواردين على ميراث النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.. وحسُن أولئك قدوة هنا ورفيقاً هناك.

ويوم يأخذنا العبث، فنغفل عن الحقيقة، ونتحول عن المشكلة إلى ما يبدو وكأنه اعتراف صريح بأن الانحراف عن منهج الله هو الأصل، وأن ما

يراه المسلم هو الطارئ، وعلى الطارئ أن يثني عنانه ليتمدن، فينحني أمام الانهدام معلناً أن الدين الذي ارتضاه لعباده قد استنفد أغراضه. . حين نقع في هذه الهوة المهلكة: فتلك واحدة من الطامات الكبرى، ونعوذ بالله من المسخ والتعطل والتبطل. .

ومهما يكن من شأن فإن هذا وأمثاله غير جديد على ميدان الصراع بين الحق والباطل. . وإنما يُوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب. . ولله الأمر من قبل ومن بعد. . وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون!!